البيئـــة

تعريفها . قانونها . أقسامها . مظاهرها . آثارها فى التربية

بيئة « السمك » الماء ، وبيئة « الطير » جو السماء ، وبيئة « النمل » باطن الأرض ، وبيئة « الإنسان » على ظهرها . ومادمنا نتكلم فى الأخلاق فالذى يهمنا هنا هو بيئة الإنسان لا بيئة غيره من مخلوقات الله : فبيئتك هى المنبع الثانى الذى تنبع منه أخلاقك ، وقد عرفت شيئاً عن المنبع الأول الذى هو الوراثة ، ووقفت على شاطئه فرأيت كيف ترث من أبويك اللون ، والطول ، والعرض ، والعادات ، والتقاليد . وعلى الجملة رأيت كيف ترث شيئاً من الصفات الفطرية ، والمكتسبة من والديك .

ونريد هنا أن نعرف شيئاً عن المنبع الثانى ، وأن نقف على شاطئه قليلا لنرى كيف تتدفق منه صفات الإنسان وخلاله .

ترى فى مكان واحد جمعاً من الناس أحياناً : جنسهم واحد ، ودينهم واحد ، ولغتهم واحدة ، وتربيتهم واحدة ، فعلى أى شىء تراهم ؟

إنك لتراهم — تقريباً — على لون واحد ، وشكل واحد ، وزى واحد ، وعادات وتقاليد واحدة ، وإدراك للأمور يكاد يكون واحداً ، شعورهم واحد ، وأحاسيسهم واحدة ، وعواطفهم تكاد تكون واحدة . وعلى الجملة تضيق بينهم جداً دائرة الفروق ، وتتسع بينهم دائرة المتشابهات .

ولو أخرجت هؤلاء من هذا المكان وجئت بعدد آخر من جنسيات

مختلفة ، وبلدان مختلفة ، ودين مختلف ، وتربية مختلفة . فماذا ترى ؟

إنك لترامم على خلاف كبير فى ألوانهم ، وأشكالهم ، وأزيائهم ، وإدراكهم ، وشعورهم ، وأحاسيسهم ، وعواطفهم ، إلى آخر ما تراه بينهم فى دائرة المتشابهات .

ولو رجعت تفتش عن السبب فلا ترى — بعد الوراثة — إلا البيئة : فالهواء ، والماء ، وجو السماء ، وشكل الأرض ، وما يكتنفها من جبال ، وبحار ، وأنهار ، وسهول ، ووديان ، وقفار ، وما إلى ذلك من نظام اجتماعى ، وسياسى ، واقتصادى ، وقضائى ، ودينى ، وعائلى . وما تراه فى المدرسة ، والأصدقاء ، والأسفار ، والكتب ، والجرائد ، والمجلات ، والسينما . كل ذلك يؤثر فيك ، ويكونك على نحو مخصوص . وكل ذلك هو الذى جعل الفريق الأول فى « دائرة المتشابهات » والثانى فى « دائرة الفروق » .

فالبيئة هى : « كل ما يحيط بك ، ويؤثر فيك ، بطريق مباشر ، أو غير مباشر ، من يوم تكون جنينا فى بطن أمك ، إلى أن تموت .

وقانونها : هو : « تكييف الكائن الحى نفسه حسبما يحيط به ليعيش » .

ترى الرجل « الإنجليزى » مثلا يودع إمرأته ، فيقبلها فى طريق عام ، والناس يرونه ، فلا يوجهون إليه أى شيء من لوم ، أو نقد ، بل ربما تلومه هى ، أو يلومه قومه إذا لم يقبلها فى مثل هذه المناسبة .

فهل يستطيع « رجل الأزهر » مثلا أن يفعل كما يفعل ذلك الرجل الإنجليزى . ولماذا ؟ إنه لا يستطيع لأن العوامل التى كونته من دين ،

وعادات ، وتقاليد ، لا تسمح له بهذا ولو كان هو يرى أن لا مانع عنده فلا يستطيع أيضاً ، لأنه يريد أن يكيف نفسه حسبما يحيط به ليعيش ، ولو قد فعل لأصابه « ضرر » وهو لا يريده لنفسه .

وترى غير الانجليزى أيضا ممن تسمح لهم عاداتهم وتقاليدهم أن « يتأبط » ذراع إمرأته ، أو حتى صديقته ، وفى فمه « البايب » يغشى بها الأندية العامة لايلومه على ذلك أحد ممن يرونه ، ولا يستطيع أن يظهر كذلك « رجل أزهرى » ولو ظهر لسلقه الناس بألسنة حداد . فالناس فى كل زمان ومكان يكيفون سلوكهم حسبما تقتضيه العادات والتقاليد ليعيشوا ، فهم يطاوعونها ، أو على الأقل يتحايدونها اتقاء لقساوتها اللهم إلا رجال الإصلاح الذين يسبقون زمانهم .

وترى الناس فى المناطق الباردة يتقون البرد بوسائل الاستدفاء المختلفة العديدة . وفى المناطق الحارة يتقون الحر كذلك . كل ذلك ليعشوا .

والبيئة تنقسم إلى قسمين :

١ — بيئة طبيعية .

٢ — بيئة اجتماعية .

والبيئة الطبيعية تطلق على مجموع ما فى البقعة التى تعيش فيها من أرض ، وهواء ، وماء ، وسماء ، وجبال ، وأنهار ، وسهول ، ووديان ، وقفار ، إلى آخر مافيها مما يحيط بك ، ويؤثر فيك :

فأنت مثلا على الأرض تعيش فى كهف طبيعى أو فى غابة تستظل بها ، أو تأخذ قطعة تضرب فيها فسطاطا ، أو خيمة ، أو كوخا ، أو تبنى عليها منزلا ، أو صرحا ، وكل ذلك يؤثر فيك .

وهذه الأرض التى تعيش عليها تجود عليك بالخصب النبـــاتى ، أو لاتجود ، وتجود عليك بالمعادن المختلفة ، أو لاتجود ، . وتجود عليك ببترول ، أو أخشاب ، أو لاتجود .

وهذه الطبيعة تجود عليك بقوة تسخرها لتوليد الكهرباء ، أولا تجود ، وبقوة تسخرها فى إدارة المطاحن ، أو لاتجود .

وهذه الشمس تجود عليك بحرارتها ونورها ، أو لاتجود . والهواء يجود عليك بنسيمه وعليله ، أو لا يجود .

وهذه الجبال العالية ، والصخور الوعره ، وهذا الجدب والقحط ، وهذه الأنهار الجارية ، والبحار الرهيبة . وهذا المد والجذر ، وهذه الوحوش الضوارى ، والجراثيم المرضيه . كل هذه الأشياء تؤثر فيك تأثيرا قوياً ، أو ضعيفا ، عاليا ، أو سافلا حسبما يحيط بك من مؤثرات . وكل هذه الأشياء من البيئة الطبيعية ، وهى عامل من أخطر العوامل فى تكوين المجتمع ، وفى إنمائه وارتقائه .

وإذا نظرت إلى هذه البيئة الطبيعية تراها هى السبب فى أن توَزَّع السكان على سطح هذه الكرة الأرضية توزيعا غير متعادل لا فى العدد ، ولا فى الرقى .

أنظر إلى المدن الزراعية ، والتجارية ، والصناعية

تر الأولى تقوم فى الأودية ، والسهول ، حول ضفاف الأنهار ، وفى سفوح الجبال حيث تجرى المياه ويكون الخصب .

والثانية على شواطىء البحار حيث تكثر موانى الملاحه لنقل المتاجر .

والثالثة حيث تكثر المعادن التى تلزم للصناعة .

وإذا رجعت إلى تاريخ المدنية ، والعمران ترى أن البلاد الأكثر اعتدالا ، والأخصب أرضاً ، والأقل جبالا ، كانت أسبق البلاد عمرانا ، وأكثرها تمدناً ، وقد تعاقب عليها أمم أكثر من سواها . وهذا هو السر فى تكون المدن ، والحواضر ، والقرى . وهو السر فى ازدحام بعض الجهات بالسكان ، وقلتهم فى غيرها .

وفى النهاية فأن البيئة الطبيعية لها أثر كبير فى تكوين الأخلاق قوة ، وضعفا ، ورفعة ، وانضاعا جسما ، وعقلا ، وخلقا ، . حتى أن ابن خلدون يعقد فصلا فى : « أثر الهواء فى أخلاق البشر » فيقول :

من خلق السودان على العموم الخفة ، وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص ، على كل توقيع . والسبب الصحيح فى ذلك أن طبيعة الفرح ، والسرور هى انتشار الروح الحيوانى ، وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس ، وهو انقباضه ، وتكاثفه ، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء ، والبخار ، مخلخلة — شىء متخلخل غير متضام — له زائدة فى كميته ، ولهذا يجد المنتشى من الفرح ، والسرور ما لا يعبر عنه ، ودلك بما يداخل بخار الروح فى القلب من الحرارة الغريزية التى تبعثها سورة الخمر فى الروح من مزاجه ، فيتفشى الروح ، وتجىء طبيعة الفرح ، وكذلك تجد المتنعمين بالحمامات ، إذا تنفسوا فى هوائها ، واتصلت حرارة الهواء فى أرواحهم ، فتسخنت لذلك ، حدث لهم فرح ، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشىء ، عن السرور . ولما كان السودان ساكنين فى الإقليم الحار ، واستولى الحر

على أمزجتهم ، وفى أصل تكوينهم ، كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم ، وأقليمهم ، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرا ، فتكون أكثر تفشيا ، فأسرع فرحا ، وسرورا ، وأكثر انبساطا . وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية ، لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء البحر ، وأشعته ، كانت حصتهم من توابع الحرارة فى الفرح ، والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة . وقد تجد يسيرا من ذلك فى أهل البلاد الجزيرية ، من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها ، وفى هوائها لأنها عريقة فى الجنوب عن الأرياف ، والتلول ، واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر ، فأنها فى مثل عرض البلاد الجزيرية ، أو قريبا منها . كيف غلب الفرح عليهم ، والخفة ، والغفلة عن العواقب ، حتى أنهم لايدخرون أقوات سنتهم ، ولا شهرهم ، وعامة مآكلهم من أسواقهم . ولما كانت « فاس » من بلاد المغرب بالعكس منها فى التوغل فى التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن ، وكيف أفرطوا فى نظر العواقب حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ، ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ مدخره ، وتتبع ذلك فى الأقاليم ، والبلدان تجده فى الأخلاق أثرا من كيفيات الهواء ، والله الخلاق العليم .

ويقول فى « اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع ، وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وأخلاقهم » يقول :

إن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ، ولا كل سكانها

فى رغد من العيش ، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش ، من الحبوب ، والأدم ، والحنطة ، والفواكه . لزكاة المنابت ، واعتدال الطينة ، ووفور العمران ، وفيها الأرض الحَرَّة التى لاتنبت زرعا ، ولا عشبا ، فسكانها فى شظف من العيش ، مثل أهل الحجاز ، وجنوب اليمن ، ومثل المُلَثَّمين من « صنهاجة » الساكنين بصحراء المغرب ، وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان ، فأن هؤلاء يفقدون الحبوب ، والأدم جملة ، وإنما أغذيتهم ، وأقواتهم الألبان ، واللحوم ، ومثل العرب أيضا الجائلين فى القفار ، فأنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب ، والأدم من التلول إلا أن ذلك فى الأحايين لايتوصلون منه إلا إلى سد الخلة ، أو دونها ، فضلا عن الرغد ، والخصب وتجدهم يقتصرون فى غالب أحوالهم على الألبان ، وتعوضهم عن الحنطة أحسن معاض ، وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب ، والأدم من أهل القفار أحسن حالا فى جسومهم ، وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين فى العيش ، فألوانهم أصفى ، وأبدانهم أنقى ، وأشكالهم أتم وأحسن ، وأخلاقهم أبعد من الإنحراف ، وأذهانهم أثقب فى المعارف ، والإدراكات . هذا أمر تشهد له التجربة فى كل جيل منهم ، والسبب فى ذلك أن كثرة الأغذية ، ورطوباتها تولد فى الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها كثرة الأخلاط الفاسدة ويتبع ذلك انكساف الألوان ، وقبح الأشكال من كثرة اللحم ، وتغطى الرطوبات على الأذهان ، والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة ، فتجىء البلادة ، والغفلة ، والانحراف عن الاعتدال . (١)

---

(١) ص ٤٣ ، ٤٤ — المقدمة طبعة المطبعة الأميرية

لكن : هل البيئة الطبيعية تتغير تغيرا ذاتيا ، أو لا تتغير ؟

يقول الاستاذ « نقولا الحداد » فى كتابه — علم الاجتماع [1] — قد تتغير البيئة لنفسها تغيرا بطيئا كأن تصبح أشد بردا ، وأكثر مطرا لعوامل طبيعية مختلفة ، كما يقال إنه حدث فرق فى طقس مصر بين عهدها الأول ، وعهدها منذ عشرات من السنين ، وهذا التغير قد لا يحسب حسابه :

وقد يحدث فيها تغيّر بسبب عوامل اجتماعية ، كأن تكون غير معمورة قليلة الزرع والضرع ، وقليلة الأشجار ، والفلال ، فتصبح عامرة تحتفر فيها الترع ، ويتسع نطاق الرى ، فتكثر الرطوبة فى جوها كما حدث فى مصر ، أو قد يكون العكس كما حدث فى لبنان . إذ كانت قممه ، وجباله ، وآكامه ، مكسوة بغابات الأرز ، والصنوبر ، والسنديان ، فأصبحت عارية منها . كل ذلك يؤثر فى تطور الأمة ، والجماعة .

كذلك كان الأمر فى أسافل السودان ، وفى أمريكا ، واستراليا ، فقد غير العمران الإنسانى بيئتها تغييرا عظيما ، وارتد فعل ذلك العمران البيئى للجماعة ، فأثر فى تطورها تأثيرا كبيرا . فتلك البلاد التى كانت مهد الهمجية ، والتوحش ، وكانت موطنا الوحوش الضوارى ، والحيوانات العديدة الأصناف ، والغابات الغضة ، أصبحت الآن موطنا للمدنية الراقية ، وانقرض منها كثير من الحيوانات ، وقل عديد البعض ، وتحولت غاباتها إلى أراض زراعية . كان معظم الذين هاجروا إليها واستعمروها فى بدء الأمر من أدنى طبقات الأمم ، فأصبحوا من أرقى الطبقات . ذهبوا إليها وهم على جهل ، فإذا هم الآن ينشرون العلم على الأمم .

(١) ج ٢ ص ٨٨

وليست آبار « البترول » عنك ببعيدة فى « جزيرة العرب » أو فى « الكويت » هذه التى أصبحت من أغنى بلاد العالم بعد أن كانت من أفقرها

لذلك ننتظر خيرا على أيدى قادة ثورتنا الأبطال ، فقد أخذوا يغيرون البيئة فى مصر بزرع الغابات ، وتصنيع البلاد . ولاشك فى أن ذلك سيمنحنا قوة نتسلح بها فى هذا النزاع على البقاء .

ولولم يكن الإنسان قادرا على تغيير البيئة الطبيعية بسبب العوامل الاجتماعية لما استطاع أن ينتشر على سطح هذه الكرة الأرضية على هذا النحو الذى تراه ، بل لانقرض فى موطنه الأصلى القديم ، كما انقرض غيره من الحيوانات .

منذ أيام سمعت إذاعة أجنبية تنبىء العالم فتقول : سيتم استخراج كذا ألف طن من الحديد ، وكذا من الفسفور ، وغيرها من المعادن التى هى أساس الصناعات فى العالم بأسره ، فجرت هذه الإذاعة — إن صحت — إلى ذهنى أن هذه الصحراء نفسها — « النقب » — التى تستخرج منها هذه الثروة المعدنية الطائلة الهائلة كانت تحت أيدى غير هؤلاء الكاشفين من يوم أن عرف الكشف عن مثل هذه المعادن فى العالم ، ولم يتيسر لهم من الوسائل مابه يستخرجون هذه الكنوز المطمورة فى باطن هذه الصحراء : فساءلت نفسى عن السر فى نشاط الأمم وخمولها . وهل مجرد وجود الأمة على أرض « حَرَّة » فى الظاهر يكفى لأن يُضرب عليها الخمول أبدا الآبدين ؟!

لابد من أن يعيش الناس على أساس « الفكرة العلمية » فالعلم « نَوَّر » العالم بالكهرباء ، وامتطى بالطائرة متن الهواء ، وعَبَّد الأرض وغاص فى

الماء إنه سيطر على كثير من موارد الطبيعة ، وسخر قواها ، وذلل صعابها ومحا المسافات بين الأفراد بالاتصال السلكى واللاسلكى إلى ما هنالك مما يحفل العالم به من نتائج العلم وكشوفه ، وغرائبه وتطبيقاته

« وبعد »

فأن البيئة الطبيعية لها أثرها فى الأخلاق من ناحية الجو ليس فى ذلك من شك ، ومن ناحية غيره أيضا إلا أن هذا الغير يمكن التغلب عليه إذا عاش سكانها على أساس « الفكرة العلمية » أما الجو فأمره عند الخلاق العليم . ومن يدرى ؟ ! ! !

٢ — البيئة الاجتماعية :

يقول « تولستوى » [1] : « ليس الكمال الذى يبلغه المرء ما يهمنا ، بل الطريقة التى يبلغه بها . . . »

(١) هو : « ليون تولستوى » أديب ، ومفكر روسى ، ينعته « مكسيم جوركى » — أديب ، ومفكر روسى أيضا — بأنه « إنسان الانسانية » توفى فى سنة ١٩١٠ عن ٨٢ عاما . عاش ثلاثين عاما من العشرين حتى الخمسين فى خلق مؤلفاته . وباقي من عمره من خمسين حتى الوفاة لم يحي إلا كى يعرف « معنى الحياة » ويفهمه . وكان يقول لا يستطيع الإنسان أن يقترب من الله إلا وحيدا »

لذلك كان يرى أنه لا يستطيع فى وسط « الأهواء » و « الأطماع » و « البغض » و « الاضطراب » أن يؤلف أثره الفنى الأخير « كمال موته » فانبثقت من أعماق شعوره فكرة توجب عليه إذا أراد أن يبلغ درجة الكمال أن يفعل ما يطلبه « الإنجيل » فيترك امرأته ، وأولاده ويتنازل عن « الملكية » و « الربح » كى يبلغ القداسة ، ويرتفع إليها . فهرب مرات : الأولى عام ١٨٨٤ لكن القوة أعوزته فى منتصف الطريق فأجبر نفسه على الرجوع إلى قرب زوجته التى كانت تعاني عندئذ آلام المخاض ، والتى أعطته فى تلك الليلة بالذات ابنة جديدة هى « الكسندرا » . والثانية فى سنة ١٨٩٧ ذهب تاركا لزوجته رسالة فيها ... إن الأولاد قد كبروا الآن ، فلم يعد وجودى فى الدار ضروريا بعد اليوم . . . إن أهم شىء أن نتشبه بالهنود الذين يهربون فى الغابات عندما يبلغون الستين من عمرهم ، فكل رجل دينى يشعر عندما يبلغ عتبة الشيخوخة بالرغبة فى وقف سنواته الأخيرة على الله وحده ، وليس على « التسلية » و « اللعب » و « الثرثرة » الفارغة . ولكنه رجع فى هذه المرة أيضا . وفى سنة ١٩١٠ لما وجد زوجته تفتش من ورائه فى مذكراته هرب ولم يعد إليها .

كان من عادته أن « ينظف » حجرة نومه بنفسه كل صباح . ومن كلماته « كى يؤمن الإنسان بالخلود لا بد له أن يعيش على هذه الأرض حياة خالده »

فما هى الطريقة التى يبلغ الإنسان بها كماله ؟

إن كمال الإنسان يأتى معلولا لعلة مركبة بعضها طبيعى كما قدمنا ، وبعضها غير طبيعى كما سترى .

لكن ما الفرق أولا بين ما هو طبيعى ، وما هو غير طبيعى ؟

الشىء الطبيعى هو الذى يكون متمشياً على سنة الطبيعة وحدها ، وغير الطبيعى هو الذى تتسلط عليه إرادة العقل البشرى ، وتسيطر عليه .

مثلا : جمال « البدوية » طبيعى . وجمال « الحضرية » المتطرية با « البدرة » فى وجهها ، و « الأحمر » فى شفاهها ، و « المانكير » فى أظافرها ، صناعى .

ومجرى النهر الطبيعى ، والقناه صناعية ، والكهف ، أو المغارة مأوى طبيعى ، والبيت مأوى صناعى . وهكذا كل ما لم تتدخل فيه إلا الطبيعة وحدها فهو طبيعى ، وما تسلطت عليه إرادة العقل البشرى ، وتسيطرت عليه فهو غير طبيعى .

وإذا كان الإنسان يتأثر بما يحيط به من مظاهر « البيئة الطبيعية » يتاثر بالهواء ، والماء ، والسماء ، والجبال ، والبحار ، والأنهار ، والسهول ، والوديان ، والقفار ، من كل ما هو طبيعى ، فأنه ليتأثر كذلك بما يحيط به من مظاهر « البيئة الاجتماعية » فيتأثر أولا ببطن الأم ، فالمنزل ، فالمدرسة ، ثم الأصدقاء ، والكتب ، والجرائد ، والمجلات ، و « السينما » ، والأسفار ، والقوانين ، والنظم ، إلى آخر مايدخل فى دائرة ما تدخلت فيه إرادة العقل البشرى ، وتسلطت عليه .

والإنسان يوم كان حيوانا لم يتمدن بعد ، أو يوم كان إنسانا همجيا

متوحشاً كان يجاهد لأجل ضروريات الحياة الحيوانية فقط من أكل ، وشرب ، ولبس ، ودفاع عن النفس . فكان مصدر رزقه فى الطبيعة ، ومن الطبيعة وحدها : يسكن الكهوف ، ويلبس الجلود ، ويصطاد ما يأكله ولما تمدن ، أو ضنت عليه الطبيعة برزقه أخذ يهجرها إلى ما يشبع رغباته . حيث لم يعد يقتصر على أن يعيش وحسب ، بل أصبح فى حاجة إلى أن يغذى عقله ، فقلبه ، ثم ذوقه .

وإذا كان الإنسان يتأثر بالبيئة الطبيعية ، وبالبيئة الاجتماعية ، فأيهما أشد أثراً فى تطوره ، وتقدمه ؟

البيئة الاجتماعية أعظم أثراً ، وأشد فاعلية فى رقى المجتمع والسير به إلى الأمام بأسرع مما تسيرها به العوامل الطبيعية . ذلك أن العوامل الطبيعية جامدة على حال واحدة ، وأما العوامل الاجتماعية فهى ثمرة العقل الإنسانى . وهو كما ترى قد استطاع أن يغير فى الطبيعة نفسها فمهد الصحراء القاحلة للزراعة ، وفتح الأقنية للرى ، ووصل البحار بعضها ببعض ، ومهد الطرق للنقل ، وبنى المنازل والسفن ، ومد السكك الحديدية ، والأسلاك «التلغرافية» وأخيراً اهتدى إلى « الرادار » و « التلفزيون » وغير ذلك من الأشياء التى لها الأثر فى راحة الإنسان ، وأزالة مخاوفه ، ومتاعبه ، وإبعاده عن الألم ، والاضطراب . وذلك طبعاً إذا استعملت فى الخير ، أما إذا استعملت فى الشر فأنها تكون من غير شك مصدر ألم ، بل خراب ودمار ، وهنا تنشأ الخيبة المفاجئة لبنى الإنسان .

١ — وأول بيئة اجتماعية للطفل بطن أمه ففيها يأخذ أول غذاء له ،

وهذا الغذاء يتأثر بما يحيط بالأم : يتأثر بفرحها ، وبحزنها ، وبخوفها ، وبكل ما يحيط بها من مؤثرات .

ولذلك ينبغى أن تبدأ تربية الطفل من يوم يكون جنيناً فى بطن أمه لا من يوم يولد كما كان يفهم بعض الناس . فالتجارب الحديثة التى أجراها العلماء ، ويجرونها كل يوم على النفس الانسانية تؤيد هذه النظرية كل التأييد .

وإليك مثالين اثنين يستدل منهما على أن « الاستعدادات » المختلفة التى تولد مع الطفل مثل « الخوف » و « الشجاعة » و « الكسل » و « الغيرة » و « الحسد » وما إلى ذلك من الميل إلى عمل معين دون آخر . كل ذلك يأتى للطفل نتيجة انفعالات نفسية قامت بنفس الأم ، أو أثراً لأعمال كانت تأتيها أثناء الحمل .

(ا) حدث أن « توماس هويز » — أحد زعماء الحركة الفكرية فى انجلترا فى القرن السابع عشر — عاش طول حياته يشكو ألم « الانكماش » و « الخوف » ويعزوهما إلى انزعاج أمه عندما اقترب الأسطول الأسبانى « أرمدا » من شواطىء انجلترا ، وكان إذ ذاك جنيناً فى بطن أمه .

(ب) « مارى ستيوارت » — بنت جاك الأول ملك انجلترا — كانت قد تزوجت بفرنسوا الأول ملك فرنسا ، وترملت بعد ذلك لسنة ، وعادت — فى سنة ١٥٦٠ — إلى وطنها الأول ، واقترنت بابن عمها « هنرى دارنلى » وكان أصغر منها سناً ، فظهر لها فيه ضعف أخلاقه ، وبنيته ، فأبطأت فى منحه امتيازات الملكية ، وحقوقها ، فاغتاظ ، واتهم فى ذلك أحد أفراد حاشيتها ، ففتك به ذات يوم على مرأى منها ، فلم تلبث أن دبرت له

مكيدة لتى حتفه فيها ، ثم تزوجت من « القاتل » له . فغضبت عليها بلادها ، وزج بها لذلك فى أعماق السجون ، وصادف أن مرت عليها هذه الأهوال ، وهى حامل فى « جاك » الذى صار فيما بعد جاك الثانى ملك انجلترا ، فكان لذلك جباناً يضرب بجبنه الأمثال ، حتى إنه كان يرتعد إذا رأى سيفاً يسل من غمده أمامه (١) .

ومما يذكر بهذه المناسبة أنى سمعت مرة من « قروية » بريف « الشرقية » تلوم ابناً لها على خوفه من مسألة مَّا ، وتعلل هذا الخوف بأنها وهى فيه « حبـــلى » قامت مذعورة على نار تأكل فى البيت ، وتكاد تلتهمها هى الأخرى التهاما .

ومن طريف ما سمعته منها أيضاً تعليقا على هذه الحادثة أن ابنها هذا على خوفه « مبروك » لماذا ؟ لأنه هو الذى أيقظها من نومها بأن تحرك فى بطنها — وكانت أول مرة له يتحرك — فاستيقظت ، فرأت النار ، فاستغاثت ، فأغاثها الجيران ، فكان ذلك سببا فى نجاتها والبيت بما فيه ومن فيه .

فعلى الأمهات أن يقدرن هذا فيكثرن أثناء الحمل من مراقبة عواطفهن ، وأفكارهن ، والعمل على ضبطها بالتزام الهدوء والسكينة حتى لا يكدرن صفو الطفل فى منبته ومستقرة .

وعلى الحكومة ، والجمعيات الخيرية ، وأغنياء الأمة أن يعملوا جميعا على أن تحاط الأمهات « الفقيرات » بـــكل أنواع العناية والرعاية مدة الحمل ، فيَأخذن من الغذاء ما يكفيهن ويبتعدن عن كل ما يسبب لهن حزنا ،

---

(١) من كتاب فى التربيه والتعليم لاستاذنا احمد فهمى العمروسى ص ٧٢، ٧٣

أو خوفا ، أو اضطرابا ، وبخاصه . ما يكون منها على درجة قاسية .

وعلى جمله من القول على الأم أن تبتعد عن كل ما يعوق الدورة الدموية عند الطفل ويوقف نموه وعليها أن تقدر أنها أثناء الحمل إنما تبذر بذور الغرائز وتغرس أصول الاستعدادات والميول فى نفس رجل الغد .

٢ — يأتى بعد بطن الأم دور « المنزل » ففيه يتعلم الطفل الأكل ، والشرب ، واللبس ، والمشى ، والنظام ، والنظافة ، والعمل ، والكلام إلى آخر ما يتعلمه فيه مما يكون به شخصا اجتماعيا يندمج مع الناس بسرعة ، وسهولة ، وبساطة ، وبشر ، أو غير اجتماعى ، يفر منهم ، أو يهابهم ، ويخافهم ، ويخشاهم ، وعلى الجملة ينعكس على الطفل كل ، أو أغلب ما يراه فى « المنزل » مما يظهر على والديه والمحيطين به من تعاطف ، وتراحم ، وقسوة وعزة وكرم ، أو شمم وإباء .

لذلك كان أول واجب على الأم إذا رزقت طفلا أن تغذيه هى بلبنها إذا كانت صحيحة معافاه لأن لبنها هو الغذاء الطبيعى الوحيد ، ولتعلم الأم أن إدخال لبن أجنبى فى الأسرة معناه إدخال دم أجنبى فيها ، ووراثة أجنبية كذلك ، وإذا كان ولابد من مرضعة فلتختبر درجة ذكائها ، وميولها ، وعاداتها ، وأخلاقها مما يؤثر فى الطفل جسما ، وعقلا ، وقلبا ،

يقول « سبنسر » فى أهمية الغذاء ، واختيار الأغذية ، ومعرفة القيمة الغذائية لكل طعام ، والوقوف على أسرعها هضما ، وأنسبها لتركيب الأجسام مع مراعاة البيئة التى يعيش فيها الإنسان ، والأعمال اليومية التى تفرض عليه يقول : « إن الأمم ذات السيادة ، والسيطرة ،

هى التى تعرف كيف تتغذى »[1] .

ويقول أستاذى الجليل احمد لطفى السيد : « إن الإنسان يطحن عمره تحت أنيابه » يعنون بذلك أن الطفل ينمو بالغذاء المناسب المنظم ، ويضعف بالسير على غير هدى فى اختيار الغذاء ، وتحديد كميته حيث ينشأ عنه الأمراض باضطراب الجهاز الهضمى .

والهواء النقى غذاء ضرورى للطفل كاللبن وغيره من الأطعمة الأخرى فعلى الأبوين أن يروضا طفلهما كل يوم فى الهواء الطلق ، والشمس المشرقة والخضرة اليانعة ، وأن يباشرا ذلك بأنفسهما ، مباشرة تحفظه من عبث المربيات .

وإذا كان الطفل فى الأسرة يتأثر بالغذاء ، فانه ليتأثر أيضا بما يرى ويسمع لمرونته وقابليته السريعة لأن تطبع فى ذهنه صور الأشياء ، ويحفظ فى مخه عدد عظيم من الألفاظ والعبارات

إن الطفل ليقلد تقليدا محكما كل ما يصدر عن والديه والمحيطين به : فابتسامته الأولى تقليد ، وإشارته تقليد ، وألفاظه وعباراته تقليد ، ومشيه تقليد ، وكل حركاته ، وسكناته نتيجة تفاعل بينه وبين من معه فى بيئته ، ولقد أحسن من شبه الطفل فى سنيه الأولى بآلة « التسجيل » بل إنه ليفوقها تسجيلا : ذلك أن هذه الآلة تسجل الصوت فقط ، أما هو فيسجل الصوت وغيره من حركات واشارات . . . لذلك كان الواجب ألا يسمع الطفل من « الألفاظ والعبارات » إلا مايرتفع به إلى السمو الخلقى . ومن هنا نعلم

---

(١) المصدر السابق ص ٧٤

مقدار مايجنى به على الطفل من تلك المنازعات ، والخاصمات الزوجية أمام الأطفال .

وإذا كانت هذه طريقة سلبية فى تربية الطفل ، فهناك أيضا طريقة إيجابية على الأبوين أن يسلكاها معه ، وهى أن يبثا فى نفوس أبنائهما الفضائل الخلقية الأساسية التى تقوم حائلا منيعا أمام رغائب النفس وشهواتها النازلة وأن الواجب على الأم ليتضاعف فى هذه الناحية أكثر لأنها تلازمه فى « المنزل » أكثر من ملازمة الأب له

ويرحم الله «معروف الرصافى» فله فى هذا المعنى أفكار سجلها فى قصيدته «التربية والأمهات » .

ولعل من الخير أن نذكرها فى هذا الباب كما ذكرنا قصيدته « العالم شعر» فى موضوع صلة الأخلاق بعلم الجمال . ففيها أفكار تجعلها من عيون الشعر الخالد .

التربية والأمهات

هى الأخلاقُ تَنْبت كالنبات
إذا سُقِيَتْ بماءِ المَكْرُمات
تقـــوم إذا تعهَّدها المُربِّى
على ســـاقِ الفضيلة مُثْمِرات
وتسمو للمكارمِ باتِّساقٍ ،
كما انسقَت أنابيبُ القَنَـــاةِ (١)
وتُنْعِش من صميم المجد رُوحاً
بأزهار لهـــا مُتَضوِّعات
ولم أرَ للخلائق من محـــلٍّ
يهذِّبها كحِضْن الأمَّهات
فحِضْن الأمّ مدرسة تسامتْ
بتربيـــة البنين أو البنـــات
وأخلاقُ الوَليدِ تُقاسُ حُسْنا
بأخـــلاق النساء الوالدات

---

(١) القناة : الرمح .

وليس ربيبُ عاليةِ المزايا
كمثل ربيبِ سافلةِ الصفات
وليس النبتُ ينبت فى جِنانٍ
كمثل النبت ينبت فى الفَلاة

* * *

فيا صدرَ القناة رَحُبْتَ صدراً ،
فأنتَ مَقَرُّ أسنى العاطفات
نراك ، إذا ضممتَ الطفلَ ، لَوْحاً
يفوق جميع ألواح الحيـــاة
إذا استند الوليدُ عليك لاحت
تصاويرُ الحَنانِ مصوَّرات
لأخلاق الصبيِّ بكَ انعكاسٌ ،
كما انعكس الخيالُ على المِراة
وما ضَرَبانُ قلبك غيرَ درس
لِتلقينِ الخِصَالِ الفاضـــلات
فأوَّلُ درسِ تهذيب السَّـــجايا
يكون عليك يا صدرَ الفتـاة
فكيف تظن بالأبناء خيراً ،
إذا نَشأوا بحِضن الجاهلات ؟

وهل يرجى لأطفالٍ كمالٌ ،
إذا ارتضعوا ثدىَّ الناقصات ؟
فما للأمَّهات جَهلن ، حتى
أتين بكل طيَّاش الحَصَاة (١)
حَنَوْنَ على الرضيع بغير علم ،
فضاع حُنُوُّ تلك المُرضِعات

* * *

أأمَّ المؤمنينَ إليكِ نشكو
مصيبتَنا بجهل المُؤمنات
فتلك مصيبةٌ يا أمُّ منها
« نَكاد نغصّ بالماءِ الفُرات » (٢)
تَخِذْنا بعدكِ العاداتِ ديناً ،
فاشْقى المسلمون المسلمات
فقد سلكوا بهنَّ سبيل خُسْرٍ ،
وصَدُّوهنَّ عن سُبُلِ الحياة
بحيثُ لَزم قعرَ البيت حتى

---

(١) الحصاة : العقل والرأى .

(٢) أمنا : أى عائشة أم المؤمنين ، وعرفت بالعلم والذكاء . الفرات : العذب .

نزلنَ به بمنزلة الأداة (١)
وعَدُّوهنَّ أضعف من ذُبابِ
بلا جُنْحٍ ، وأهونَ من شذاة (٢)
وقالوا : شِرعَةُ الإسلام تقضِي
بتفضيل « الذين » على « اللواتى »
وقالوا : إنَّ معنى العلم شيءٌ
تضيق به صدورُ الغانيات
وقالوا : الجاهلاتُ أعَفُّ نَفْساً
عن الفَحْشا من المُتعلِّمات
لقد كَذَبوا على الإسلام كذباً ،
تزولُ الشُّمُّ منه مُزَلْزَلات
أليس العِلمُ فى الإسلام فَرْضاً
على أبنائه وعلى البنات ؟
وكانت أُمَّنَا فى العِلم بحراً
تحُلُّ لسائليها المُشكِلات
وعلَّمها النبيُّ أجلَّ علمٍ ،

---

(١) الأداة : الآلة .

(٢) جنح : أراد به جمع جناح ، وهو غير وارد . الشذاة : الشيء الخلق البالى.

فكانتْ من أجلّ العالمات
لذا قال : ارجِعُوا أبداً إليها
بثُلْثَى دِينِكم ذى البيِّنات
وكان العلم تَلقيناً ، فأمسَى
يُحصَّل بانتياب المَدْرَسات
وبالتَّقرير من كُتُبٍ ضِخام ،
وبالقلم المُمَدِّ من الدواة
ألم نَرَ فى الحسان الغِيدِ قبلاً
أوانسَ كاتباتٍ شاعرات ؟
وقد كانت نساء القوم قِدْماً
يَزُحْنَ إلى الحروب مع الغُزاة
يكنَّ لهم على الأعداءِ عَوْناً ،
ويَضمِدن الجروحَ الداميات
وكم مِنهنَّ من أُسِرَتْ وذاقت
عذابَ الهُونِ فى أسر العُداة
فماذا اليومَ ضرَّ لو التفتنا
إلى أسلافِنا بعضَ التفات
فهم ساروا بنَهْج هُدًى ، وسِرنا

بِمِنهاج التفرق والشتات

نرى جهل الفتاة لها عَفافاً ،
كأنَّ الجهل حِصنٌ للفتاة

ونحتقر الحلائلَ لا لِجُرمٍ ،
فنؤذيهنَّ أنواعَ الأذاة (١)

ونُلزمهنَّ قعرَ البيت قهراً ،
ونحسبهنَّ فيه من الهَنات (٢)

لئِنْ وَأَدُوا البناتِ فقد قَبرْنا
جميعَ نسائنا قبلَ الممات (٣)

حجبناهُنَّ عن طَلَب المعالى ،
فعِشن بجهلهنَّ مُهَتَّكات

ولو عَدِمتْ طباعُ القومِ لؤماً ،
لما غدت النساءُ محجَّبات

وتهذيبُ الرجالِ أجلُّ شرطٍ
لجعل نسائهم مُتَهَذِّبات

---

(١) الحلائل : الزوجات .
(٢) الهنات : الأشياء اليسيرة .
(٣) وأد البنت : دفنها حية .

وما ضرَّ العَفيفةَ كشفُ وجه
بدا بينَ الأعِفَّاءِ الأُباة

فِدًى لخلائقِ الأعرابِ نفسى ،
وإن وُصِفوا لدَينا بالجُفَاة

فكم برزتْ بحيِّهم الغوانى
حواسرَ غير ما متَريِّبات (١)

وكم خِشفٍ بمَرْبَعِهم وظبيٍ
يَمُرُّ مع الجِداية والمَهَاة (٢)

ولولا الجهلُ ثَمَّ ، لقلتُ : مَرْحَى
لمن أَلِفوا البـــداوة فى الفلاة ! (٣)

---

(١) حواسر : سافرات .

(٢) الخشف : ولد الظبية . الجداية : الظبية . المهاة : البقرة الوحشية . والمراد : الشبان والشابات .

(٣) ثم : هناك . مرحى : كلمة تقال عند إصابة الشىء .

٣ — وإذا كانت مهمة « المنزل » ، أو الأسرة تنحصر أكثر ماتنحصر في التربية البدنية ، والخلقية فأن مهمة « المدرسة » لتنحصر أكثر ماتنحصر ، أو تعنى أكثر ماتعنى بالتربية العقلية .

يقول المربى الانجليزى « توماس أرتولد » : « إن التعجيل بالأطفال إلى طلب العلم ، وشحن قرائحهم بمسائل علمية لا يفهمونها ، قد يؤدى بغضاضتهم ونضرتهم ، ويطفىء فيهم البادرة وتور البديهة ، ولن يلاقى الأطفال فى حياتهم الأولى وبالا شرا عليهم من سبق عقولهم لأبدانهم »

وكان - وهو ناظر لأحدى المدارس - يرتع ويلعب مع تلاميذه الصغار ، ويخرج معهم فيترامون جميعاً بكرات الثلج ، ويسبحون فى الماء ، ويتسابقون بالجدف بالزوارق . يقصد من ذلك أن يوجه تلاميذه إلى أن يقوى أجسامهم ، فسلامة النفوس تتوقف إلى حد بعيد على صحة الأجسام لذلك كان يقول : « إننا نرمى إلى خدمة الجسم ، وتقويته إلى أقصى حد مستطاع ، لا للتباهى به ، أو استخدامه فى قضاء مآرب شخصية ، بل لغرض أسمى وأرفع ، هو حماية الضعيف ، ونصرة العدل فى العالم أجمع ، وفتح الدنيا ، ووراثة الأرض ومن عليها » .

وفى هذا كان يقول أيضاً « عروة بن الزبير » لولده : « يابنى العبوا فان المروءة لا تكون إلا بعد اللعب » .

ويقول «أميرسون» : « يجب على الإنسان أن يكون حيواناً قوياً إذا شاء ان يكون النجاح حليفه فى هذه الحياة ، وأن الأمة التى تريد أن تتبوأ مقعد صدق بين الأمم الراقية يجب أن تتألف من أفراد كالحيوان بأساً وقوة »[1].

---

(١) من كتاب « فى التربية والتعليم لاستاذنا احمد فهمى العمروسى » .

والذى أريد أن أخلص اليه من كل هذا أن دور « المدرسة » فى تربية العقل ينبغى أن يأتى فى سن مناسبة ، وأن أولئك الذين يجرون بأولادهم على المدارس ، يرجون أن يقبلوا وإن لم يبلغوا سناً مناسبة مخطئون ، وخير أن يؤسسوا أبناءهم بتربية أجسامهم ، وقلوبهم ، وأذواقهم ، وأن يتأخروا بعقولهم حتى تنضج الأجسام .

ومما يجدر بنا أن نلاحظه أن مدارسنا ومعاهدنا تعنى أكثر ماتعنى بحشو الذهن بالمعلومات ، وأن التلميذ لايهمه من أمر التعليم إلا أن ينجح آخر العام . أما الغاية من التعليم فأنا قد نحفظها ، ولا نسير على ضوئها .

إن الغاية من التربية والتعليم هى : « إعداد الطفل لأن يكون رجلا كاملا - بالإضافة إلى الذى له الكمال المطلق - جسما ، وعقلا ، وخلقا ..

فهل نجحت المدرسة ، أو نجح الأساتذة فى صقل الأفراد أو أغلب الأفراد على هذه الغاية ؟ ! !

واقع الأمر يقول : لا . ودليلنا على ذلك أن بلادنا لم تزل محتلة أرضها « بالعسكرى الأجنبى » وعقلها بكثير من الأوهام والخرافات التى تبعدنا من أن « نفهم الحياة » على وجهها الصحيح .

استعرض أمامك ما ترى « العقل » قد وصل إليه من « مخترعات » فكم لنا فيها ، أو مالنا فيها ؟ ! !

ولم لا ؟ ! ! هل خلق عقلنا « ينفعل » دائما ، ولا « يفعل » أبدا

المنطق الصحيح يقول : إن مدارسنا ، وأساتذتنا ، وبالتالى أسرنا وإن نجحت بعض الشيء فى إصابة « الهدف » من التربية ، والتعليم ، إلا أنها لم تزل عن الغاية بعيدة .

ثم ارجع إلى واقع الأمر مرة ثانية تر فى مصر معسكرات ثلاثة . كل منها يلون عقلية « الفرد » بلون يخالف اللون الآخر .

١ — التعليم الدينى له لون .

٢ — والتعليم المدنى لون .

٣ — والتعليم الأجنبي له لون آخر .

قد لا يضر « التلوين » إذا نضجت « العقلية » فأصبحت قادرة على أن تفهم ، وتفكر ، وتدرك ، وتقيس ، وتستنبط إلى آخر ما يحتاجه « العقل » فى عملياته .

أما أن نأخذ فى « تلوينها » ولم تنضج بعد ، ففى ذلك الخطر كل الخطر .

وسبيل إصابة الهدف من التربية والتعليم هو :

أولا : أن نحبب إلى الطلاب « القراءة » .

ثانيا : أن نقضى على تلك الطريقة التى لا تخرج إلا « محافظ » وأشباه متعلمين .

ثالثا : أن نعمل على أن نخرج أناسا يحكمون أنفسهم ، ويعتمدون عليها فى شق طريق لهم فى هذه الحياة .

رابعا : أن نعمل على تضييق دائرة الفروق بين الأفراد ، وتوسيع دائرة المتشابهات حتى يكون هناك « انسجام » بين الأفراد .

يجزع كثير منا من « توحيد التعليم » فى المرحلة الأولى والثانية ، ولكنى أعيد ما ناديت به فى « مؤتمر التعليم » المنعقد فى القاهرة فى سنة ١٩٤٦ من أنى أول من ينادى بتجنيد نفسه تحت لواء « توحيد التعليم » على شرط

أن تقترب المعسكرات الأخرى من التعليم الديني ، وليس العكس . فالعقل كما يقولون : بنموه ، وتسلط نزعاته ، وتفرق خواطره كالبخار يحتاج إلى أديم منيع وجسد متين يحمل ضغطته ، ويقاوم تسلطه ، وليس كالدين قوة في هذا السبيل .

وعلى جملة من القول فالمدرسة عامل من عوامل البيئة الاجتماعية التي تؤثر في « الأفراد » بنظمها ، وقوانينها ، وتقاليدها ، وبرامجها وبكل شيء فيها حتى « مكانها » وليس الفرض من التربية والتعليم أن نخرج « موظفين » بل الفرض أن نخرج سادة أحراراً كبار النفوس يتمتعون بالرأي والحرية في كل ما يعرض عليهم من أعمال .

٤ — وإذا كانت « بطن الأم » و « المنزل » و « المدرسة » من العوامل التي تؤثر في تكوين « الفرد » فان هناك عاملا اجتماعيا آخر لا يقل أهمية عن هذه العوامل ذلك هو « الرفاق » أو « الأصدقاء » . ولأهمية هذا العامل أتوسع بكلمة عنه فأقول:

إن الصداقة من الأشياء الضرورية للإنسان في هذه الحياة ، فالحياة لا تكون طيبة مقبولة ، إلا إذا عاش الانسان مع ناس أخيار فضلاء ، وتمتع برؤية الأصدقاء النبلاء . وليس هناك من يقبل أن يعيش بلا أصدقاء ، مهما توفرت له أسباب السعادة ، ومهما واتته جميع الخيرات ، بل كلما كثر مال الانسان وعز سلطانه ، وعظم جاهه ، شعر أكثر بحاجته إلى أصدقاء ، فيهم تمام النعمة ، ورؤية المرء أصدقاءه لذة ، فهم زينة في الرخاء ، وعدة عند البلاء . والعجب ممن يألم من الحياة وله أصدقاء .

والشعور بالحاجة إلى « الصديق » من قانون الطبع ، فهو إحساس فطري

لا بين الناس وحسب ، بل أيضاً فى الطيور ، وفى أكثر الحيوانات التى يحب بعضها بعضاً .

والصداقة تأتى من التوافق فى الطباع ، فلا يتفق اثنان فى عشرة إلا وفى أحدهما وصف من الآخر ، فأشكال الناس كأجناس الطير ، فكل إنسان مع شكله كما أن كلّ طير مع جنسه . فالتوافق فى الطبع شرط أساسى فى الصداقة ، فإذا اصطحب اثنان حيناً وليس بينهما مناسبةٌ ما فلا بد أن يتفرقا ، فالنفوس أشكال فما تشاكل منها اتفق ، وما تضاد منها اختلف . ويرى بعض أساتذة الحضارة أن الصداقة امتداد فى حب الانسان لذاته حتى يشمل غيرها .

وعلى ذلك يكون الصديق فى منزلة النفس بل صديقك هو نفسك مكرره .

سئل حكيم : ما الأصدقاء ؟ فقال : نفس واحدة فى أجساد متفرقة .

وما أطيب قول الشاعر فى هذا المعنى :

وجدتُ نفسك من نفسى بمنزلة هى المصافاة بين الماء والراح

وإذا كان التوافُق فى الطبع شرطاً أساسياً فى الصداقة ، فكذلك قد يكون الاشتراك فى أمر طارىء أو عاهة سبباً من أسباب الصداقة . رأى رجل مرَّة حمامة مع غراب ، فعجب من اتفاقهما وليسا من جنس واحد ، فلما مشيا إذا هما أعرجان فقال : من هاهنا اتفقا .

واتخاذ الأصدقاء أمر حثت عليه الشرائع . ورغب فيه الحكماء .

قال صلوات الله عليه : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم » وقال

على رضى الله عنه : « عليكم باقتناء الأخوان . فهم عدة فى الدين والدنيا . ألا ترى إلى قول الله عز وجل حكاية عن أهل النار فى النار . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . وقيل لأبُقراط : ما أفضل مايقتنى الأنسان ؟ فقال : « الصديق المخلص » وقد أحسن من قال : « إن الأخ الصالح خير لك من نفسك لأن نفسَك قد تأمرك بالسوء ، والأخ الصالح لا يأمرك إلا بالخير . وإذا كانت الصداقة من الأشياء الضرورية للأنسان فى هذه الحياة وكان اتخاذ الأصدقاء أمراً مرغوباً فيه . فاختيار الأصدقاء الأصفياء أشدُّ ضرورة وبخاصة للطالب ومن فى حكمه .

* * *

واختيار الصديق له طرق : منها أن ننظر إلى إخوانه فالأنسان لايصاحب إلا شكله . قال صلوات الله عليه : المرء على دين خليله فلينظر امرؤ من يخالل » وقال رجل لآخر : قدمنا بلدكم فعرفنا خياركم من شراركم فلحق خيارُ نا بخياركم وشرارُنا بشرارُكم فألف كل شكله . الطريق الثانى : أن تضع حسناته فى كفة وسيئاته فى كفة فأن رجحت الحسنات فصادقه وإلا فابتعد عنه فأنه يحرقك بناره . الطريق الثالث : أن تُغضب من تُريد أن تصطفيه لنفسك فان مللك نفسه فاتخذه خليلا .

لاتحمدن امرأ يُرضيك ظاهره : واخبر مودته فى العتب والغضب

الطريق الرابع : أن تنظر إلى عينه . فالعين عنوان القلب وهى شاهد الحب والبغض فاستنطق العيون تعلم المكنون .

ألا إن عين المرء عنوانُ قلبه : تُخَبِّرُ عن أسراره شاء أم أبى

والصداقة على أنواع : فهناك صداقة أساسها المنفعة . ففلان وفلان صديقان . ولكن لماذا ؟ لأنهما يُصيبان كسبا ومنفعة من هذه العلاقة المتبادلة . فهما صديقان لا يُحب كل منهما الآخر لذاته وشخصه . بل من أجل المنفعة والكسب . وهذه الصداقة التى أساسها المنفعةُ والخيرُ الشخصى صداقةُ العامة . وهى صداقة لاتدوم أبدا بل تنقطع بغاية السهولة . وتنعدم بانعدام سببها . لأن الأنسان لايستطيع دائما أن ينفع صاحبه . بل هذا أمر خاضع للظروف والأحوال .. والظروف والأحوال تتغير من لحظة لأخرى .

وهناك صداقة أساسُها وسببها الفضيلة . ففلان صديق فلان لا لخير شخصى ولا لمنفعة ذاتية . وإنما يصادقه للفضيلة والخير العام . وهذه الصداقة للفضيلة هى صداقة الخاصة من الناس ، وهى الصداقة الوحيدة التى تستحق اسم الصداقة . وهى الصداقة الكاملة ، الباقية ، الشريفة بشرف سببها . وهذه هى التى ينبغى أن تسمى صداقة حقاً لأنها صداقة الناس الفضلاء الأخيار ، الذين يحب بعضهم بعضاً لا لشىء إلا لأنهم أخيارٌ فضلاء ، وهذه هى الصداقة التى تربط قلوب الصديقين بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها لأنها صداقةٌ موجودة فى الأشخاص أنفسهم وأعيانهم لا فى شىء خارج عنهم كما هى الحال فى صداقة المنفعة .

وصداقة الفضيلة هى الصداقة التى يكمل بها الايمان . قال النبى صلوات الله عليه : « من أحب لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، وأبغض لله ، فقد استكمل الأيمان .

وللصداقة حدود وواجبات . فما هو الواجب عليك لصديقك ؟

واجب عليك لصديقك أن تسدى المعروف إليه ، وتقدم إليه المعونة وبخاصة متى كان فى حاجة إليها ولم يطلبها منك . واجب عليك لصديقك أن تحافظ على شعوره وإحساسه ، وأن تحفظه فى غيبته فمن الناس من يسمع انتقاص صديق له فيميل به ضعفه إلى مجاراة المتكلمين بل ربما انحدر معهم على صاحبه بانتقاصه . وهذا هو الصديق الجاهل « وعدو عاقل خير من صديق جاهل » وعلى جملة من القول تحب لصديقك ما تحب لنفسك ، وتكره له ما تكره لها ، ولاخير فى صداقة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه .

وقد نظم بعض الشعراء حق الصديق على صديقه قال :

لخليلى على منى ثلاث ... واجبات أتيحها إخوانى
حفظه بالمغيب إن غاب عنى ... ولقاء بالبشر إن لاقانى
ثم بذلى لما حوته يمينى ... مسعداً فى الخطوب أنى دعانى
هذه حالة الصديق فإن ... حال فعندى عوائد الأحسان

وأخطر آفة تأكل الصداقة فلا تبقى ولا تذر . تلك هى آفة الكذب . ذلك أن الكذب يفقد ثقة الأنسان بالشخص الكذاب . والعلاقات التى بين الناس فى حياتهم المشتركة سواء فى الأقوال أم الأعمال أساسها الثقة . فأذا وجدت الثقة وجدت العلاقة . وأذا انعدمت الثقة انعدمت العلاقة ولا ثقة فى كذوب ، وصدق من قال : « من قل صدقه قل صديقه ، بل قال بعض الحكماء : « إنما سمى الصديق صديقاً لصدقه فيما يدعيه لك ، فالصداقة بينها وبين الصدق ارتباط وثيق .

فأما أن تكون أخى بصدق ... فأعرف منك غثى من سمينى
وإلا فاجتنبنى واتخذنى ... عدواً أتقيك وتتقينى

وقد اعتنى كثير من الأدباء بوضع دساتير للصداقة يعجبنى منها دستور وضعه حكيم لابنه قال : « يابنى إن نازعتك نفسك إلى الرجال يوماً لحاجتك إليهم . فاصحب من إن صحبته زانك . وإن تخففت له صانك . وإن نزلت بك مؤنة مانك . وإن قلت صدق قولك . وإن صلت شدد صولك : يا بنى : اصحب من إذا مددت إليه يدك لفضل مدها . وإن رأى منك حسنة عدها . وإن بدت منك ثلمة سدها . يا بنى : اصحب من لا تأتيك منه البوائق — أى الشرور — ولا تختلف عليك منه الطرائق . ولا يخذلك عند الحقائق.

« وبعد » فهل للقارىء أن يتدبر جيدا ماقلناه فى هذا الباب ليعرف كيف يختار الصديق ، ويكيف سلوكه على ضوء هذا الدستور ؟

٥ — وإذا كانت « المدرسة » تعطيك نصيبا من العلم ، والعقل ، وتعطيك نصيباً من الشخصية الاجتماعية بوجودك ، فى مجتمع حى ، فأن « القراءة » ، وما فى حكمها من « السينما » و « الرحلات » و « الأسفار » لتعطيك هى الأخرى أيضاً نصيباً من العلم ، ومن العقل ، والشخصية ، بوجودك فى مجتمع . ولكن . من أفكار من تقرأ ، ومن مناظر ما تتأمل ، وإن كتاب الكون لخير هاد ، وخير مرشد ، وخير مثقف فى هذه الناحية .

إن « القراءة » ومافى حكمها تقدم الوسائل اللازمة لتحقيق أغراضنا ، وإنك لترى أذهان من يقرأون نيرة ، ومداركهم واسعة ، ونفوسهم مملوءة ثقة ، واطمئنانا يتزايد كلما زادت القراءة ، وزاد الاطلاع .

إن بعض الناس يعرف . كيف يقرأ ، ومتى يقرأ . ولماذا يقرأ ؟ فيستفيد ، ويفيد . وبعضهم لا يعرف . فَيَتْعب ويُتْعب . وخير لأمثال هؤلاء ، أن يعرفوا أولا . كيف ، ومتى ، ولماذا يقرأن ؟

يقول « رَسْكن » : « قد تقرأ كل مافى دار الكتب فتخرج منها على لا شيء . وقد تقرأ صحيفة واحدة من كتاب ، فتخرج بها عالما » يعنى ، بذلك أن الأول قد لا يستفيد شيئاً لأنه لم يعرف كيف يقرأ « وأما الثانى فقد يخرج « بفكرة » واحدة تنير له طريق حياته ، وتسعده فى أيامه . لأنه فهم منها « معنى الحياه » أو شيئا عن معنى الحياه .

إن السعادة « معنى فى النفس » هذه كلمة واحدة ، فانظر كيف تنير لك طريق الحياه إذا تدبرتها ، وتأملتها ، وفكرت فيها .

قد تكون مضطرب الأعصاب ساخطاً على الزمان ، وعلى المكان فتقرؤها ، أو مثلها ، فتشعر بصدر ينشرح ، ونفس تطمئن ، وأعصاب تهدأ ، فتنقلب « الظلمة » أمامك « نورا » و « الضيق » « فرجا » و « الارتباك » « هدوءا » لأنك بها شعرت بوجودك .

إن السعادة معنى فى نفسك أنت لا فى شى خارج عنك ، وفى ذلك معنى الحياه .

إن القراءة « تنور » الذهن ، وتوسع دائرة الثقافـــة ، فوق ما فيها من تسلية ومتعة .

كان « أرسطو » ينور ذهن « الاسكندر » ويوسع ثقافته ، بالأدب مدروسا فى « الشعراء » و « الخطباء » . وكان يلقنه « الأخلاق » مدروسة فى « التقاليد » الاجتماعية ، وفى « الطبع » الإنسانى » ويعلمه « السياسة » فى تجارب الأمم ، أو فى « دساتير » الممالك المختلفة [1] هذا برنامج وضعه أستاذ من أساتذة الحضارة الأكرمين لتلميذ يعرفه العـالم أجمع . فهل لك

---

(١) « تصدير » آستاذنا الجليل أحمـــد لطفى السيد لكتاب الأخلاق لأرسطوطاليس

أن تسير على ضوئه فى « الأدب » وفى « الأخلاق » ، وفى « السياسة » ؟ أو بعبارة أخرى فى « القراءة »

يقول الأستاذ « ج . د . برنال » — أستاذ الطبيعة بجامعة لندن — فى « رسالة العلم الاجتماعية » أثناء كلامه على « العلم فى الشرق » يقول : توقف مدى انتشار العلم فى الدول غير الأوربية على الوضع السياسى ، والنفوذ الاقتصادى الذى كان للدول الاستعمارية فيها . ويمكننا أى نرى غاية الاختلاف فى ذلك النفوذ بمقارنة الهند باليابان . فالتقاليد العلمية فى الهند قديمة ، وقد استمرت دون انقطاع تقريبا ، ولو أنها كانت قد ضعفت أخيرا . وقد أدت بحوث الهند إلى تقدم كبير فى « الرياضة » فى العالم كله ، وعند ما بسط الانجليز نفوذهم فى الهند أدخلوا العلم الجديد « منفصلا » كل الانفصال عن « القديم » فحدث انقسام فى الجبهة العلمية بين التقاليد الوطنية القديمة ، والحضارة الأجنبية الحديثة ، وفضلا عن هذا كان نظام التعليم الذى أدخله الانجليز لايهتم بالعلم كثيراً [1] .

هذه مسألة وإن كانت بديهية لا تحتاج إلى « استشهاد » إلا أن قوتها تأتى من ناحية « من يقولها » على « من يرتكبها » ومنها ترى أن « المستعمر » دس إلينا « السم » ، لكن : لا فى الطعام ، والشراب وإنما دسه إلينا

---

(١) ترجمة الأستاذين : ابراهيم حلمى عبد الرحمن . ومحمود على فضلى . والأستاذ « برنال » هذا ولد فى أيرلندا عام ١٩٠١ وتلقى تعليمه العالى فى كلية « إيما تويل » بجامعة « كمبريدج » ثم تقلب فى وظائف علمية إلى أن انتخب عضوا بالجمعية الملكية بلندن ، ثم اختير أستاذا للطبيعة بجامعة لندن ، وقد انتخب أخيراً رئيساً لرابطة « المشتغلين بالعلم » فى بريطانيا .

فى « الأفكار والمعلومات » فتَجَهَّمنا لقديمنا ، حتى كدنا نقطع الصلة بيننا وبينه .

لقد رأينا وسمعنا جيلا كان كل همه أن يهدم « القديم وهذه « فكرة » استعمارية بشهادة « رئيس رابطة المشتغلين بالعلم فى بريطانيا » .

أنا لا أقول : إن الجديد كله شر ، ولا أن القديم كله خير ، بل الخير والشر موجود فى الجديد كما أنه موجود فى القديم ، ولكن الذى لا يرضاه « عالم » أن تُقطع الصلة بين القديم وبين الجديد ، وأن تبنى حضارة البلاد على أساس لا يرتكز على « القديم » ولا يعرف إلا هـــذا الجديد .

« المعرفة » التى يطلبها « القارىء » من : الكتب ، والجرائد ، والمجلات ، وما فى حكم الكتب ، والجرائد ، والمجلات ، هذه « المعرفة » لا تعرف « التعصب » بل شيئاً واحـــداً تعرفه هو « الحقيقة » ولو تتبعنا تاريخ نشوء « نظرية المعرفة » من عصر الفلسفة القديمة أيام السوفسطائيين حتى العصور الحديثة لما وجدنا أحدث ما وصل إليه العقل البشرى بشأنها إلا مسطوراً فى كتابنا العزيز — القرآن الكريم — حيث يقول : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

إن القرآن الكريم — فى هذه الآية — ليبيح إبداء الرأى على أساس الشك مع أنه يعتقد أنه على حق .

وهل وصلت نظرية المعرفة فى جامعات العالم كلها ، أو بين فلاسفة العالم كلهم إلى أكثر من هذا ؟ ! ! !

إن الابحاث التجريبية التى أدت إلى مذهب « الشك » كان فضل من

قاموا بها : أمثال « بيكون — ١٦٢٦ — صاحب المنطق الحديث ، وأمثال « هوبز » — ١٦٧٩ ، و « جون لوك » — ١٧٠٤ — كان فضل هؤلاء ، وأمثال هؤلاء أن أيقظوا « النُّوَّم » عن مثل هذه الآية الكريمة . . . والذى أريد أن أخلص إليه من هذا كله أن أدعو « القارىء » إلى أن لا « يفصل » الجديد عن القديم ، وإلى أن يقرأ فى الجديد ، وفى القديم ، وألا يتعصب لا إلى هذا ، ولا إلى ذاك ، بل إلى « الحقيقة » من حيث هى، وبذلك تكون «القراءة »وسيلة من وسائل التربية ، والتهذيب، والتعليم .

وإذا كانت « القراءة » وسيلة ناجعة إلى « التثقيف » فإن « الرحلات » ، أو « الأسفار » هى الأخرى وسيلة تؤثر فى تكوين ثقافتك وشخصيتك . ولذلك ترى القرآن الكريم يدعو إليها ويحث عليها فى قوله تعالى : « قُلْ سِيرُوا فى الأرضِ فانظروا كيف بدأ الخلق » ويقول : « إنَّ فى خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وَاختلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولى الألبابِ » ويقول : « فامْشُوا فى مَنَاكِبِهَا وَكُلوا مِنْ رِزْقِهِ وإليهِ النُّشُور » . ويقول صلوات الله عليه : « يا ابن آدم أحدث لى سَفَرا أحدث لك رزقا » ويقول : « سافروا تغنموا » بل إن الإسلام ليلفت « المستضعفين » الذين ركنوا إلى الضعف ، إلى تقوية أنفسهم عن طريق « الأسفار » أو عن طريق « الهجرة » فيقول : « إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظالِمِى أنفُسِهِمْ . قالوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قالوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأرضِ . قالوا ألَمْ تَكُنْ أرضُ اللهِ واسعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيها ؟ ! ! ! » ثم انظر اليه يتوعدهم بسوء المصير فيقول : « فأُولئك مَأوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَت مَصِيراً » ثم يستثنى

من هذا الحكم فيقول : « إلا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ وَالوِلدان لايَسْتَطِيعُونَ حِيلةً ولا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وكانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً » .

وواقع الأمر أمامنا يرينا أن الأمم « الرحالة » قد وصلت إلى درجة لم تصل إليها بعد غيرها ممن لا يزالون يرتبطون بالأرض .

فهل لنا أن نقتدى بهم ؟

وإذا كانت الأخلاق تنبع من الوراثة والبيئة وقد عرفنا ماهى الوراثة وما هى البيئة . وكانت الأخلاق هى صورة النفس الباطنة والسلوك هو صورتها الظاهرة فما هو هذا السلوك ؟

---

obeikandl.com